تاريخ

حياة اللورد كتشنر

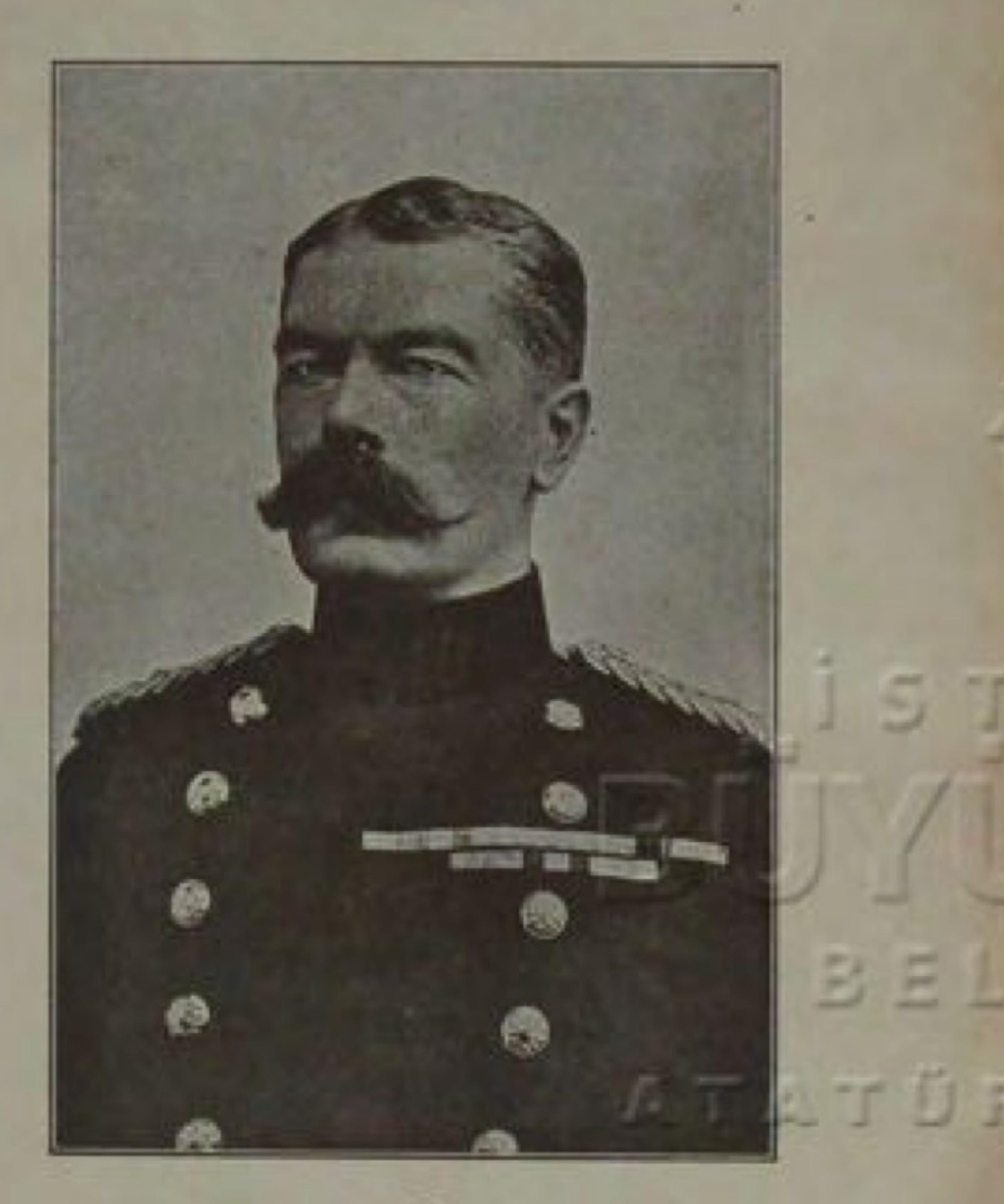
بقلم

عبد الحليم العمراوي

سنة ١٩١٦

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر





اللورد كتشنر

ولد عام ١٨٥٠ — توفى عام ١٩١٦

تاريخ

حياة اللورد كتشنر

بقلم

عبد الحليم الغمراوى

يطلب من ملتزم طبعه
نجيب متري
صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

سنة ١٩١٦

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

اللورد كتشنر

الفصل الأول

طفوليته ونشأته

هوراثيو هربرت كتشنر انجليزى الأصل ولكنه ابرلاندى المولد والنشأة . ولد فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو عام ١٨٥٠ فى منزل اسمه جونبورد لودج « Gunsborough House » الأبيض اللون . المربع الشكل . الواقع على بعد ثلاثة أميال ونصف ميل من بلدة لستول « Listowel »

من هذا يستدل على ان لا صحة لما ذكره بعض المؤرخين من انه وُلد فى ولاية كيرى « County Kerry » بمنزل كروتر « Crotter House » والذى وُلد فيه حقيقة هو أخوه الأصغر الجنرال ف . والتر كتشنر « General F. W. Kitchener »

واللورد كتشنر هو ثانى أولاد اليفتنانت كولونيل هنرى هوراثيو

كتشنر من كوسنجتن التـابعة للسترشير «Cossington» «Leicestershire» خدم فى الهند ملتحقاً بفرقة يادة ومنها انتقل الى فرقة خيالة و بعد مدة استقال من الجيش وعاد الى انجلترا

اقترن بزوجة انجليزية تدعى فرنسيس «Frances» ابنة جون شفاليير «John Chevallier» العريق المجد والكريم المحتد

سافر ذات مرة هنرى هوراتيو كتشنر الى ايرلاندا بعد المجاعة والاضطراب الذى حدث فيهـا عام ١٨٤٧ وقد قصد دبلن فعلم هناك ان أراضى ولايتى ليمريك «Limerice» وكيرى «Kerry» معروضة للبيع فى المحاكم فابتاع منها مساحة يقدر ثمنها بمبلغ ثلاثة آلاف من الجنيهات وكان ذلك عام ١٨٤٨

اقترض مبلغاً من المال من المستر بيرس ماهونى «Mr.Pierce Mahony» وشيد منزل جونبورد لودج الذى ولد فيه كما أبنا أولا اللورد كتشنر وذلك بعد عامين

نشأ اللورد ميالاً للحركة جداً لا يهدأ للراحة ولا يستريح من وعثاء تعب القفز والجرى والغدو والرواح ولو لحظة بل ولا طرفة عين ونحن لا نغالى فى قول ذلك بل هاك شهادة أحد معارف أبيه وفيها يقول « هربرت كتشنر رجل هدو ربع ساعة فقط »

ولشدة ميله لما فات تأخر فى الدرس عن بقية رفاقه ورسب فى الامتحان الابتدائى مراراً ولولا تهديد أبيــه ووعيده له بكل سوء اذا لم ينجح لما نجح ويظهر ان الوعيد الذى أثر فى نفس كتشنر كثيراً هو قول أبيه له « اذا فشلت فى الامتحان المقبل فانى مودعك مع الخراف والنعاج والأبقار فى مدرسة الحيوانات المجاورة» ومن يومئذ نشط اللورد وجد واجتهد وكفاه فخراً بحزمه وعزمه انه الولد الثانى ولكنه مخلد ذكرى عائلته الأول تخليداً سيبقى أبد الدهر تذكره الأجيال مع تعاقب طوال الأيام والليالى

نما وترعرع اللورد على صفات جمعها أحد أصدقاء العائلة فى كلمتى « الرجل الحق » وقد قال صديق حميم للورد نشأ معه «عرفت كتشنر فعهدته جاداً مجتهداً» وذكر أحد مؤرخى حياته ما يأتى :

« كان هربرت كتشنر فى نشأته هادئاً ساكناً شغوفاً بالمطالعة داخل المنزل وعلى العكس فى خارجه محباً للعب ولكن لعب الألعاب الرياضية »

للورد ثلاثة اخوة وأخت واحدة والأولون هم شفالير وهو اكبر اخوته سناً وقد انتقل اليه هذا الاسم من ناحية أمه ثم ارثر ووالتر أما الأخت فتدعى المس ملى

تعودت هذه الاخوة ابان الصغر أن يتريضوا فى ضواحى منزلهم وكانت تربة غبراء وشجرة خضراء وأحياناً فى الصيف قبل شروق الشمس يمتطون عربة تجرها جياد مطهمة فتسير بهم الى حيث تتلاطم أمواج المحيط الأطلسى الأزرق ويعودون عند حلول ميعاد تناول الفطور

ولما أينعت أزهارهم كان ما احتقبه أبوهم من النقود أوشك على النفاد غير أنه فى مرابط الخيل بقى حصان واحد وعربة واحدة لا يركبها الأولاد الا نادراً

كتب المستر جيرمياه اوكيفى من الترالى « Mr. Jeremiah O'Keefe, of Tralee » فى جريدة الرجل الحر «Freeman's Jurnal » شيئاً عن هذه النزه التى تعودتها عائلة كتشنر وكان مما جاء فى هذه المقالة ما يأتى :

« لما كان اللورد كتشنر فى نشأته قاطناً بالمنزل كروتا اعتاد هو واخوته أن يركب العربة الى بانسترائد واليها يكونون قد قطعوا سبعة أميال بين مروج خضراء، وماء جارية بيضاء. كنت أيامئذ صغيراً أذهب الى المدرسة سعياً على الاقدام وكتبى تحت ابطى الأيسر وفى يدى اليمنى نصيب أستاذى (١) . كنت قروياً . كم من

---

(١) العادة كما يسميها الفلاحون والجراية كما يسميها المصريون

مرة سرت ازاء عربة هذه العائلة السعيدة وكم من مرة رأيتهم يستحمون فى النهر ويسبحون وكانوا جميعاً ماهرين »

كان هناك على مقربة من دارهم مدرسة بروتستانت يديرها قسيس يدعى ويليام رايموند حاز ثقة الناس جميعاً فجاء به الليفتنانت كولونيل هنرى هوراتيو كتشنر ليلقن أولاده مبادى التعليم غير أن مدة تعليمه لم تطل معهم اذ فاجأته المنية وكان قد جيء قبله بكثير من المربين والمربيات نخص بالذكر منهم المستر ألين فيرمان والمس تكز

تعلم كتشنر واخوته بعض الشؤون الزراعية لأن أباهم الكولونيل كتشنر افتتن وجماعة من الجنود المستقيلين بالتجارة فى المحصولات الزراعية وفى أيام ميلاد ولده الثانى صاحب التاريخ ابتاع محصول باليجوخلان « Ballygoughlan » الواقعة على مقربة من تاربرت « Tarbert » وأخذ فى التجارة وحيداً غير متخذ من الأعوان الا اثنان وقع عليهما اختياره وما اختارهما الا لالمامهما التام بهذه التجارة وفعلاً ربح ربحاً عظيماً دعاه الى تأسيس فاوريقة لصنع الفخار عند تاربرت

لم يتلق اللورد كتشنر شيئاً من العلم فى كلية ويلتجئون للأطفال

وكذلك ليس من الصحة ما يقرره بعض المؤرخين من انه تعلم فى هارو على الدكتور باتلر المدرّس الآن فى ترينيتى ونحن لم نقل ذلك الّا بناء على تصريح صرّح به الدكتور باتلر لأحد مؤرخى حياة اللورد وهو المستر هوريس جروسر

سافر اللورد من ايرلاندا وهو فى الثالثة عشرة من عمره الى الجراند كلوس عند فيلنيف « Grand Clos, Villeneuve » حيث تعلم هو وأخوته أيضاً زمناً طويلاً على الاستاذ بينيت « J. Bennett » وهناك فى عام ١٨٦٤ طيَّر البرق اليهم خبر وفاة أمهم ومن يوم ذلك الخبر المشئوم ألقى كتشنر نظراته الأخيرة على مياه بحيرة جنيف ثم قمم الألبين اذ عاد الى لندن واختير له الاستاذ جورج فروست القاطن بمنزل نمرة ٢٨ بميدان كنسنجتون وانتقل من بين يديه الى الاكاديمية الملوكية الحربية فى وولويش

وكم تمنى هذا الاستاذ الذى تنبأ لصاحب التاريخ بمستقبل باهر أن يعمّر طويلاً ليرى فعال تلميذه ولكنه مات وكتشنر يبدى من الهمة الشماء شيئاً كثيراً فى السودان وقد وجد بين أوراقه خطاب يتضمن شكر اللورد كتشنر له على تهانيه القلبية بما أحرزه من فوز ونصر

الفصل الثانى

تعليمه

يرجع تاريخ الاكاديمية الملوكية الحربية أو كما يسميها العامة « بالحانوت » « The Shop » الى أواسط القرن الثامن عشر وكانت موجودة بمنزل عتيق فى وولويش لم يؤسس الا عام ١٧٤١ لغرض فحص الراغبين فى الالتحاق بالمدفعية أو قسم المهندسين الحربيين

وفى عام ١٨٠٦ انتقلت الى مكانها الحالى وفيه التحق كتشنر بها فى يوم ٢٨ يناير عام ١٨٦٨ ولم يؤذن له بدخولها الا فى يوم ٣١ من الشهر المذكور

كان الأمر فوضى فى هذه الاكاديمية أيام كان الملتحقون بهـا يحاربون فى بلاسى « Plassey » وفى كويبك وعند تل بانكر ولكن الحكومة عنيت بها ورتبت حالها ودبرت أمرها أحسن تدبير وذلك قبل التحاق كتشنر بمدة ١٢ سنة وبعضهم يقول بمدة عشر

سنين ويقال ان الدافع لعناية الحكومة بها انما هو العجز والتقصير الذى ظهر فاضحاً شائناً فى حرب القرم

اعتنت الحكومة بهذه الأكاديمية شديد العناية حتى تخرج منها ولنجتون ذلك القائد العظيم ونابيير « Napier » الذى لعب دوراً مهماً فى الهند وفى بلاد الحبشة وعند حصن مجدالا « Magdala » الحصين وكذلك أمثال شارلس جورج غوردون الذى من أجله ذهب كتشنر الى السودان

التحق غوردون بالأكاديمية قبل التحاق كتشنر بمدة عشرين سنة . كان غوردون ضعيفاً جدا فى العلوم الرياضية وعلى العكس منه كان كتشنر الذى عرّفه رفقاوه لشدة ذكائه فيها « بحلاّل المسائل » فى الامتحان النهائى وكانت تمارينه بالغة من الصعوبة مكاناً علياً فاز كتشنر ضمن جماعة يعدون على أصابع اليد الواحدة وقد فازوا جميعاً فى الفنون التى كتب عنها الماجور أرثر جريفث فى « بيرسونز مجازين Pearson's Magazine » فى شهر ابريل عام ١٩٠٠ والذى كتبه هو « فى الهندسة الحربية ويمكنهم الخدمة بمنتهى السهولة فى المدفعية كما وانهم يستطيعون عمل المدافع الضخمة أو الصغيرة . مدافع الحصون أو الميادين . ولهم الخبرة الكافية

بتشييد الحصون واقامة القلاع وفيهم من زاد فوق ذلك بالالمام بالأعمال التلغرافية والفوتوغرافية والسكك الحديدية والبالونات »

لم يكتفِ هربرت كتشنر بالعلوم الحربية التى تلقاها فى وولويش بل واصل الدرس وظل ثلاث سنوات كاملة وهو فى الدرشوت وشاتام حيث صرف اكثر أوقاته فى أعمال تلغراف الميدان فكان يقوم بكل الأعمال الفنية التى تقتضيها وظيفته فى الجيش التى التحق بها بعد قضاء ثلاث سنوات فى وولويش وهى ملازم فى فرقة المهندسين الملكية وقد خصص أوقات فراغه التى يقضيها سواء فى الرياضة والنزهة للتبحر فى الفنون الهندسية الحربية وفروعها وظهرت ثمار درس كتشنر للفنون الهندسية فى أعماله العظيمة التى قام بها فى بناء السكك الحديدية فى السودان وفى خطته التى اتبعها فى جنوبى افريقيا فى حربه مع البوير

اغتنم كتشنر فرصة سنحت له اقرن علمه بالعمل والتمرين على الخدمة العاملة فى الميدان وذلك ان الحرب نشبت بين فرنسا والمانيا ولا نزيدك ايها القارئ تعريفاً بهذه الحرب فهى التى اشتهرت بالحرب السبعينية وكفى

ذهب كتشنر الى دينان لزيارة أبيه فسمع قصف المدافع —

مدافع هذه الحرب الضروس — فعرض خدمته على الحكومة الفرنسوية فقبل وألحق بجيش لوار الثانى الذى يتولى قيادته الجنرال شانزى المعروف بالشجاعة والاقدام وكان نصيبه فرقة حرس مو بيل فى قسم الشواطئ الشمالية

وانه لمن حسن الحظ الخدمة تحت قيادة هذا القائد البطل ولكن كتشنر الانجليزى المتطوع فى الجيش الفرنسوى علم يقيناً بعد خبرة حربية انه يحارب مع الفريق الذى يكون نصيبه الفشل اذا لم يتلافَ عاجلاً الخطر الذى يحيق به

جاهر كتشنر برأيه الى القائد شانزى فتثبت من صحته ولهذا أوحى الى الجيش بالانسحاب بانتظام الى المانز « Le Mans »

صعد كتشنر مع ضابطين فرنسويين فى بالون حربى فأصيب بداء الرئة واضطر الى اعتزال الخدمة والعودة الى انجلترا حيث استأنف دروسه الحربية فى وولويش

يقول بعض المؤرخين ان لا صحة لما سبق ولكن المستر جروسر يذكر فى كتابه ان اللورد كتشنر أكد له صحة ذلك

لم تشر الصحف الفرنسوية اليها بافاضة وافية الا على ذكر اسم كتشنر مقروناً باسمى أم درمان وفاشودة والذى كتب طويلاً عن

اللورد أيامئذٍ هو المكاتب الحربى السابق المستر أرنست فيزتلى وذلك فى خطابات عدة نشرتها جريدة الوستمنستر غازيت فى شهر يوليو عام ١٩٠٢

ويذكر القراء ان الشعب الفرنسوى قام فى سنة ١٩١٣ طالباً من حكومته أن تمنح لورد كتشنر مدالية الحرب السبعينية اعترافاً بخدماته الجليلة مع فرقة الطيران تحت قيادة الجنرال جورى وابداء لدليل آخر على متانة الاتفاق الودى

ترك كتشنر حانوت وولويش عام ١٨٧١ والتحق بالجيش كما أبنا سابقاً وفى الجيش عمل اللورد فوق ما هو مكلف به

تاقت نفسه أن يجرى بعض التمرينات والعمليات فى الخارج وكان له ما أراد عام ١٨٧٤ اذ التحق بتلك الجمعية التى أنشئت فى انجلترا عام ١٨٦٥ بقصد البحث عن الآثار فى فلسطين والتنقيب عن الآثار العلمية فى تلك البلاد ومسح تلك الأراضى ورسمها بقصد التوسع فى المعلومات عنها ومعرفة مواقع البلاد الوارد ذكرها فى الكتاب المقدس بالدقة والضبط وكان يقوم بتلك الأعمال ضابطان من الفرقة التابع لها كتشنر وهما الكابتن ستيوارت والملازم كلود كوندر ويساعدهما المستر تيروت دريك فخلا مركز بين رجال

تلك الحملة وذلك بموت الأخير فى اورشليم عام ١٨٧٤ وعرض على هربرت كتشنر فقبله وانضم الى رجال تلك الحملة فى اليوم التاسع عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٧٤

الفصل الثالث

أعماله العلمية فى فلسطين

ان الذى يجهل تاريخ حياة اللورد كتشنر لا يصدق ما عليه من الصفات قاهر محمود والخليفة وهازمهما بين تلال ووديان الأرض المقدسة وبطل كاندهار « Kandahar » فى حرب البوير بافريقيا الجنوبية

ان الأعمال التى قام بها كتشنر فى فلسطين من أجل الأعمال ومن التى بها كان معروفاً مشهوراً وذلك لأسباب عدة منها ان فلسطين نفسها بلاد من الأهمية بمكان مزدحمة بالسكان المختلفى الملل والنحل وفلسطين هذه عبارة عن سرداب من الأرض يبلغ طوله ١٥٠ ميلاً وهناك السائح يشعر بزمهرير البرد شتاء ولفح الحر صيفاً . فى شمالها جبال هرمون « Mount Hermon » وفى

جنوبها البحر الميت وعلى جانبيها الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء . ذئاب فى المغاور . وبلابل تشجى بصوتها فوق أغصان الأشجار . وبالجملة أرض فلسطين غنية

تداولت على فلسطين دول وقد ترك الاسرائيليون والرومان والبيزانطيون والصليبيون وغيرهم فيها أثراً يدل عليهم

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

وصل كتشنر الى فلسطين فى شهر نوفمبر عام ١٨٧٤ ومن يوم وصوله وشروعه فى العمل أخذ اسمه يظهر بكثرة فى التقارير التى يكتبها رئيس الحملة باعثاً بها الى أولى الأمر فى لندن

اشترك كتشنر مع زميله الملازم كوندر فى مسح منطقة زيون « Zion » الصخرية وقد لاقيا مصاعب جمة ولكنهما لم يرجعا عن عزمهما لأن هذه المنطقة أقرب سبيل يؤدى الى مدينتى هيرود « Herod » ودافيد « David »

أصيب كتشنر بحمى قبل حلول شهر مارس وكانت الحملة لم تنجز من العمل الا مساحة أرض لا تزيد عن ٣٣٠ ميلاً مربعاً ومعرفة مواقع ٢٠٠ بلدة

كتب الملازم كوندر عن بعض ما قاسته الحملة من المتاعب فى

وادى سيال « Wady Seiyal » ما يأتى :

هبت العواصف واشتدت الأنواء فلم يكن من كلابنا والدليلين الآ أن التجأوا الى الكهوف وسقط الشيخ حمزة العجوز من على ظهر مهرته مرتين ولولا ربطنا اياه بها لتعددت سقطاته أما حيواناتنا الصبورة وهى الخيول السورية المشار اليها بالبنان فحتى الساعة الثامنة مساء كانت متحملة كل تأثيرات هذه العواصف ونحن وجدنا مأوى يأوينا فى حبرون « Hebron » بمنزل يهودى الماني وقد أكرم مثوانا أيما اكرام

كان هربرت كتشنر يقوم بجميع أعمال الحملة الفوتوغرافية خير قيام ولقد قال أحد رجال الحملة « ان كل الذى استطيع قوله عن كتشنر هو أنه كان رفيقاً خيّراً قوى الارادة شريف المقاصد جليل الأعمال » وجاء لهذا العضو أيضاً فى حديث له عن الحملة « كان كتشنر أقلنا عناية بالثياب حتى انه بعد مضى أشهر قلائل خُيّل لنا أنه أحد العوام لا أحد ضباط جلالة الملكة ولو بيعت ملابسه يومئذ فى سوق وايت شابل لما كانت تساوى الأ ثلاث بنسات وربما لا »

ومما يذكر أثناء هذه الحملة انه خرج يوماً من أيام الصيف الحارة مع صديقه وزميله الملازم كوندر الى شاطئ البحر بالقرب من عسقلان

التى يذكرها التاريخ الانجليزى لما لها من العلاقة مع البطل ريشارد قلب الأسد وهناك نزلا للاستحمام فبعد الملازم كوندر عن الشاطئ غير حاسب للتيار الشديد حساباً فتقاذفته الأمواج وأشرف على الهلاك لولا مبادرة كتشنر اليه مخاطراً بحياته

وحدث لرجال الحملة حادث آخر فى صفد أبدى فيه كتشنر بسالة نادرة وحذقاً عظيماً ولولاه لذهب الملازم كوندر قتيلاً وكان ذلك فى شهر يوليو عام ١٨٧٥

وتفصيل الحادث ان جماعة من الاعراب بقيادة أميرهم هاجموا خيام الحملة يوم السبت ١٠ يوليو عام ١٨٧٥ لما وصلت الى صفد عند الساعة الرابعة بعد الظهر وحطت رحالها ونصبت خيامها فى ظل بعض أشجار الزيتون فوق أرض غير منزرعة

دخل الأمير خيمة الملازم كوندر وأجرى فيها البحث والتنقيب وفى أثناء ذلك تقلد كوندر سيفه وتقدم ليعارض الأمير فيما يجرى فما شعر الا وحوله جماعة من الأعراب وأخذ البعض منهم يرشقه بالأحجار والبعض الآخر بالنبال ولولا مساعدة كتشنر كما أشار الملازم الى الحادث فى أحدى رسائله « وثباته ورباطة جأشه لقتلت بلا ريب فانه هجم على واحـــد من الذين كانوا قد اطبقوا عليّ واشغله حتى تمكنت من الانسحاب »

كان الأعراب يلقون الأحجار ويصوبون بنادقهم وهم يصيحون قائلين « المسيحيون الكلاب » ولما تقدم اليهم كتشنر وأخذ يهدئهم ويطيب خاطرهم ويفصح أمره وزملاءه لهم زادوا عناداً وكان جزاؤه أن أصيب بحجر فى فخذه وبضربة على ذراعه . أما كوندر فأصيب بشجين بليغين فى رأسه وجرح سبعة آخرون من رجال الحملة

قال كوندر فى رسالة أخرى « رأيت المسلمين قد أحاطونا احاطة السوار بالمعصم وسلبونا من وراء الأشجار ومن بين كروم العنب ولولا قدوم الجند الينا لكنا فى عداد الأموات ولما زال عنا الخطر قليلاً أصدرت الأمر بترك الخيام وبالرحيل حالاً » وفعلاً رحل الجميع الا كتشنر فكان آخرهم اذ بدأت المهاجمة تعود ثانية وكتشنر يحتاط بحذر فى ردها حتى يسلم زملاؤه ولقد مر طلق نارى بجوار أذن كتشنر ولكن لم يمسه بسوء

أبلغ الحادث لوزارة الخارجية ففاوضت قنصلها الجنرال فى بيروت ولما وصلت الحملة الى حيفا يوم ١٢ يوليو أبلغت القنصل أيضاً الخبر وبعد ثلاثة أيام وصلت الحملة الى الدير الموجود فى جبل كارمل حيث مكث كوندر وكتشنر عدة أيام للسؤال والجواب بخصوص الحادث

أصيب الكثيرون من أعضاء الحملة بالحمى وكانت اصابة كتشنر أشد من اصابات الآخرين . ومما يروى عنه أثناء مرضه انه بينما كان ملقى على فراشه وقد خارت قواه رأى على المائدة زجاجة من الجعة فرجا أحد الضباط اخوانه بأن يسقيه جرعة منها ليبرد لظى ناره ولما كان الملازم كوندر هو الضابط الأقدم المسئول اعترض على ذلك . على ان الضابط الآخر كان هو نفسه قد ذاق مرارة المرض فرثى لحال رفيقه فلم يستطع أن يرفض طلبه بل أعطاه كأساً من الجعة فتناولها كتشنر وشرب ما فيها رغم نصائح الباقين بأن لا يفعل واشتد المرض عليه بعد ذلك فقلق عليه أصدقاؤه . الأَ ان كتشنر نام نوماً عميقاً بعد ذلك ولما استيقظ من رقاده كانت الحمى قد فارقته وأخذ يتدرج الى الشفاء

بدأت محاكمة المعتدين على الحملة فى يوم ١١ سبتمبر وذلك فى عكا وحضر الملازم كوندر وكتشنر معظم جلسات المحكمة وانتهت المحاكمة يوم ٢٨ سبتمبر وقضى على ثمانية بالحبس مدة شهرين وعلى ستة بثلاثة أشهر وعلى اثنين بسنة واحدة وبغرامة قدرها ١١٢ جنيهاً على أهالي بلدة صفد

رأى رجال الحملة الأحكام خفيفة نظراً الى الاعتداء فاحتجوا

فزيدت العقوبة وزيدت الغرامة التى دفعت للجمعية تعويضاً عن الأشياء التى كان المعتدون قد عطلوها

وكان رجال الحملة قد عادوا جميعاً الى انجلترا ولم يبقَ سوى الملازم كوندر وكتشنر لحضور المحاكمة ولما انتهت لحقا برفاقهما فوصلا الى انجلترا فى نهاية عام ١٨٧٥

الفصل الرابع

فى انجلترا وفلسطين ثانية

عاد كتشنر وزميله الملازم كلود كوندر بنتيجة حسنة مقبولة وقد ورد فى التقرير (الجزء الثانى) للجمعية « ان الأشياء التى بعث بها الملازمان كوندر وكتشنر ذات قيمة فوق ما كان منتظراً . لقد أتما مساحة ١٦٠٠ ميل مربع فى ولايتى اليهودية « Judah » وفلسطيا « Philistia » ونحو ١٨٠ ميلاً مربعاً فى جنوب غاليلى « Galilee » وبهذا لم يتبقَّ الأ مساحة ١٤٠٠ ميل مربع ويكون العمل تاماً فى فلسطين الغربية من دان الى بئر سبع » وقد أجرى مسحها بمعرفة كتشنر نفسه

قضى كتشنر عام ١٨٧٦ يعمل فى دار الجمعية فى لندن وكان مركز الجمعية فى غرفة بصالة ألبرت وما عمل سنتئذٍ الا تتميم الرسوم التى أخذها والخرائط التى رسمها رجال الحملة . وقبل ان ينتهى من هذا العمل صدر اليه الأمر بالاستعداد للعودة ثانيـة الى فلسطين وحدد له أول السنة الجديدة أى عام ١٨٧٧ وفعلاً ألّف حملة أخرى لاتمام العمل نيطت به رئاستها وفى يناير من العام المذكور ولّت الحملة الجديدة وجهها نحو دمشق وهناك ابتاعت بعض اللزوميات وخصوصاً الخيل

تأخرت الحملة فى بور سعيد مدة سبعة أيام لسبب عدم وصول الباخرة الروسية التى أقلتهم فوصلوا الى بيروت يوم ٦ فبراير وبعد ٢٢ يوماً بدىء العمل

سمع كتشنر أخباراً مقلقة عن الدروز منها انهم يزهقون أرواح المسافرين الى دمشق ووردت اليه من الجنوب أخبار أخرى تفيد بأن قبيلتين من الأعراب هاجتا . لم يحفل بكل هذه الأنباء بل سار بحملته الى طبريا اذ وصلها فى شهر مارس وفى يوم ١٠ ابريل وصلت ثانية الى صفد وهناك استقبلوا استقبالاً حسناً فخرج الحاكم والقاضى والموظفون لمقابلتهم خارج المدينة وذهبوا بهم الى سراية

الحكومة حيث عوملوا معاملة الضيوف واكرموا كل الاكرام وضرب رجال الحملة خيامهم خارج المدينة . وفى اليوم الثانى زارهم الحاكم والقنصل الانجليزى وعدوهم الألد القديم المدعو على أغا علان وقد أبدى هذا الرجل أسفه واعتذاره عما جرى منه فى عام ١٨٧٥

مكثت الحملة ليلة واحدة فى الناصرة « Nazarette » ثم انتقلت الى حطين « Hattin » وفيها كانت تعبئة الحملة كما جاء فى أحدى المذكرات مكوّنة من خمس خيام مصرية وسبعة خيول صغيرة عربية وسبعة بغال وأربعة من الأوروبيين وعشرة من الوطنيين واثنين من الباشبوزق انتدبا من قبل الحكومة لمرافقة الحملة

علم كتشنر فى يوم ٢٨ ابريل ان الحرب نشبت بين تركيا والروسيا وقد واصل العمل متنقلاً من بلدة الى أخرى حتى وصل الى بئر سبع ثم اضطر الى العودة لنفاد المؤونة وكان الحر شديداً فى الناصرة عند ما بلغها فأصيب بضربة شمس خفيفة

وقد حاول رجال الحملة بناء سور حول بئر يعقوب فى نابلس حفظاً لهذا الأثر فساء ذلك الأهالى الذين ألقوا الأحجار على كتشنر ورجاله أثناء طوافهم فى شوارع نابلس وراجع كتشنر ورجاله أعمال المساحة التى أجريت سنة ١٨٧٢ وحققوها قبل

عودتهم الى انجلترا فى ديسمبر عام ١٨٧٧

كتب من حيفا فى شهر يوليو « نحن الآن على بعد من لبنان بمسافة قصيرة ننشد الراحة التى نحن فى شدة الحاجة اليها مدة ثلاثة أسابيع . . . أنبأتكم فى التقرير الذى بعثت به اليكم من بيروت ان جماعة من البدو هاجمونى وأصابونى بجراح بالقرب من بانياس « Banias » واقد أرسل « الدردج » السفير الانجليزى الجنود الذين حققوا — الجزاء من جنس العمل — »

وورد فى تقرير آخر « بلغت درجة الحرارة لما كنا فى الناصرة ١١٤ فى الظل ولم أستطع دخول الخيمة لأنى لا أقوى على السير ولا يقوى أحد على حملى حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وكانت الخيمة فى صيداء « Sidon » وأوشكت كلابى أن تموت ولشدة اعيائها حملت طول الطريق »

لاقت الحملة الثانية من المتاعب والصعوبات ما هو أشد من الأولى وقد حدث ان شيخ احدى القرى رمى كتشنر بالأحجار وهو يخط القرية على قطعة من الورق فما كان من كتشنر الا انه توقف عن العمل وأبلغ الحاكم الحادثة فألقى القبض على الشيخ حالاً ثم عاد كتشنر الى العمل ولما فرغ منه استأذن فى اطلاق سراحه فأطلق

فى يوم ٢ اكتوبر كتب الى الجمعية يقول « انى متأكد ان الجمعية ستسر اذا علمت ان الخارطة تمت . جرحت فى بئر سبع يوم ٢٨ سبتمبر » وقد مرّ بميدان القتال العثمانى الروسى وشهد المواقع ولما عاد الى انجلترا كتب جملة مقالات فى مجلة الغابة السوداء « بلاكوود » وصف فيها اختباراته وما شاهده ووصف الشعوب المتحاربة من روس وترك و بلغار

الفصل الخامس

فى قبرص وآسيا الصغرى

عاد كتشنر الى انجلترا مرة أخرى فى يناير عام ١٨٧٨ وبعد اجازة قصيرة انضم الى زميله الملازم كوندر فى دار آثار كنسنجتون الجنوبية حيث أخذا فى ترتيب الأشياء المستجلبة من فلسطين وفى اتمام الخرائط وفى كتابة التقارير الوافية وحتى ٢٠ سبتمبر لم تكن قد تمت الخارطة المطلوبة عن فلسطين الغربية بمقياس رسم بوصة للميل الواحد وعليها كل بلدة وقرية وتل وعزبة و كفر . وفى أثناء هذا العمل كانت جزيرة قبرص قد انتقلت الى انجلترا بفضل

المعاهدة التى أبرمت بين تركيا و بريطانيا عام ١٨٧٨ وأمضيت فى القسطنطينية

عهد الى الملازم كتشنر بزيارة قبرص ورسمها ورسم خرائط لها فبرح انجلترا فى يوم ١٩ سبتمبر عام ١٨٧٨ وقام بهذا العمل خير قيام ورأى قبرص فى شدة الحاجة الى اصلاحات عديدة طوراً من الوجهة الصحية وأخرى من الوجهة الفنية فكتب التقارير المطولة عن موانئها وحياضها وطرقها والسكك الحديدية الضرورية لها وكذا طرق الرى والصرف ثم نيط به تسجيل الأرض وحصرها

وبين عامى ١٨٧٩ و ١٨٨١ انتدب لأعمال خاصة فترك أعماله فى الجزيرة على أن العمل استؤنف ثانية وتم تماماً وأصدرت الحكومة الأنجليزية عام ١٨٨٥ خرائطها الجديدة عن جزيرة قبرص وهى من ثمار أعمال كتشنر

ان سبب ايقاف العمل فى قبرص بين سنتى ١٨٧٩ و ١٨٨١ هو أن السير شارلس ولسن من الضباط المهندسين لما عين قنصلاً جنرالاً لانجلترا فى بلاد الأناضول اختار زميله الصغير الملازم كتشنر أن يكون وكيلاً له فى مدينة ارضروم وهناك رأى كتشنر أهوال الحرب التى كانت ناشبة بين الروس والترك

مد كتشنر يد المساعدة وهو فى ارضروم للمسلمين الذين هاجروا من بلادهم مخافة ويلات الحرب المستطيرة وكم قدّم لهم من الطعام وما كانوا يحملون زاداً ثم هيأ لهم مواطن الراحة والامن وكانوا هاشجى البال مضطربى البلبال . لا يملكون على شىء من الثياب الآ ما تسترت به أجسادهم وهى أطمار بالية

عاد كتشنر الى قبرص عام ١٨٨١ ومعه ترخيص رسمى يجيز له زيارة الأمكنة المقدسة فى الامبراطورية العثمانية وقد تنقل به فى جهات مختلفة لما سهل للعرب فتح الطريق الى بطرة « Petra » وذلك عام ١٨٨٣

لا يفوتنا هنا أن نذكر الكابتن وارن (الآن الجنرال شارلس وارن) الذى عمل كثيراً مع كتشنر فى قبرص واذا شاء القارىء الالمام بشىء عنه فيكفيه أن يعرف انه هو الذى تولى قيادة فرقة خيالة يطلق عليها اسم « خيول ميادين الماس » ببلاد الكاب حيث قابله كتشنر مرة ثانية بعد مضى عشرين سنة

تبلغ مساحة قبرص مليونين ونصف مليون فدان تقريباً ولا يزيد طولها على ١٤٠ ميلاً ومتوسط عرضها ٣٠ ميلاً

لما وصلها كتشنر كانت معظم هذه المساحة مستنقعات تنشأ

منها الأمراض المعدية أما قراها فجبلية تعلوها الأوساخ والاقذار وقد تعاقبت أمم على قبرص منها أمة الفينيقيين ثم جماعة المصريين فأمة اليونان وبعد مدة طويلة تولاها الرومان ومن بعدهم حكمها البيزانطيون وغيرهم

رفع عليها العلم الانجليزى أيام ريشارد قلب الأسد واليوم يرفع عليها ثانية العلم الانجليزى . وهكذا الحال أمم تذهب وأخرى تجىء

الفصل السادس

قدومه الأولى الى مصر

قدر لكتشنر أن تكون حياته كلها مرتبطة بأمور الشرق فانه ما كاد يصل الى الاسكندرية عام ١٨٨٢ باجازة قصيرة من قبرص حتى بدأت الثورة العرابية التى تولى زعامتها كما هو مبين من نسبتها أحمد عرابى قائد الفرقة الرابعة ثم كان الوزير الأول ورئيس الجيش

جاء الأسطول البريطانى الى مياه الاسكندرية وكثر الهياج فى المدينة وكان كتشنر أشد الناس تحمساً للاشتراك فى العمل اذا ما قررت الحكومة أن يكون لها يد فى اخماد الثورة فطلب اطالة اجازته

على أمل أن يجد فرصة للاشتراك بالعمل غير أن الأيام مرت ولم تبدأ انجلترا فى العمل وانتهت اجازته وكاد يعصى الأوامر ويبقى بعد انتهاء اجازته فأبرق برقية أخرى يطلب اطالة الاجازة . ويقول المستر ونستن تشرشل ان أحد أصدقائه من مراسلى الصحف اقترح عليه أن يقول فى البرقية انه اذا لم يرد عليه رد سريع يستنتج من ذلك ان طلبه قد أجيب على أن الرد جاء معجلاً الا أنه وقع فى يد صديقه المراسل فلم يوصله له الا بعد سفر بريد قبرص وهكذا وجد كتشنر أمامه اسبوعاً كاملاً . وقد تحدث أمور كثيرة فى اسبوع

فى أوائل شهر يوليو أخذ عرابى باشا يبعث بالجند الى الاسكندرية ويقوّى حصونها ورغماً عن الاحتجاجات ضد كل هذه الاحتياطات لم يرعوِ عن أمره وصار يدلى الى المحتجين بأسباب أهمها اجراء ترميمات ولكن هذه لم تحلّ لدى الانجليز محلاً مقبولاً فتقدم الأسطول الانجليزى وعلى ظهر احد مراكبه كان كتشنر ثم ضرب مدينة الاسكندرية ونزلت فرقة من الجنود الانجليزية الى البرّ وقررت الحكومة البريطانية ارسال جيش الى مصر وكانت الحاجة ماسة الى ضابط مثل كتشنر يعرف اللغة العربيـة جيداً وفعلاً جاء الجيش

وقائده العام السير جارنت ولسلى الذى قدم الى مصر يوم ١٥ أغسطس وبدأ العمل فى سبيل تأييد الأريكة الخديوية واعادة الأمن الى مجاريه

قال المستر ونستن تشرشل فى كتابه « حرب النهر » عن أعمال كتشنر فى مصر للمرة الأولى « انه تولى قيادة فرقة خيالة مصرية وخدم فى المواقع » وقال الماجور ونجت فى كتابه (المهدية والسودان المصرى) « انه بأعماله فى الجيش المصرى رقى الى المراتب العليا فوق المرتبة التى كان بها فى خدمة الجيش الانجليزى »

ارتد عرابى بجيشه الى القاهرة بعد أن دارت بينه وبين الانجليز مواقع دحر فيها وخصوصاً عند كفر الدوار اذ هناك فى يوم ٢٠ أغسطس عام ١٨٨٢ حصلت بين العرابيين والانجليز واقعة استمرت ساعتين وكان عدد العرابيين ضعف عدد الانجليز واشتدت الحرب بينهما وظهرت علائم الفشل على وجوه العرابيين وكان الانجليز قد تقدموا صفوفاً منتظمة نحو مراكز العصاة فأصلاهم العرابيون فى بادئ الأمر بنار حامية ولبثوا مستقرين فى مراكزهم ثم انتشر الانجليز فى مراكز متفرقة وأخذوا يهجمون على العرابيين هجوماً متقطعاً ثم ضيقوا عليهم مذاهب الفرار فأوقعوا بكثيرين

منهم وقد انقلب العرابيون الى تل الوادى ابتغاء تعزيز معسكره والتحصن فيه

وفى يوم ٢٢ اغسطس اقتتل الفريقان فى كفر الدوار قتالاً عنيفاً انجلى عن هزم العرابيين شر هزيمة

وفى يوم ٢٣ اغسطس اشتبك الانجليز مع العرابيين بين تل المشحوطة والاسماعيلية وانجات الموقعة عن اخراج العرابيين من مراكزهم . وفى يوم ٢٨ اغسطس فشل العرابيون فشلاً يلحق العار والشنار فى القصاصين

وفى ١٢ سبتمبر ورد على الخديوى من سلطان باشا ما يفيد أن الانجليز قد استعدوا للهجوم على العرابيين فى التل الكبير ثم ورد تلغراف آخر ينبئ بأن الانجليز هجموا على التل وان العرابيين لم يقفوا أمامهم الا عشرين دقيقة وفى تلك الموقعة طارت خيمة عرابى فى الهواء اثر قنبلة انجليزية ألقيت عليها أما عرابى فلما أحدق به الخطر أسرع الى النجاة بأن ركب جواداً كريماً حتى محطة أبي حماد ثم أعياه التعب فأسرع بالنزول الى القطار وأمر السائق بالمسير فتأخر عن اجابته فلما أحس بالمكيدة وعلم ان السائق مغرى استل سيفه وشهره عليه وهدده بالقتل فامتثل السائق لأمره وسار بالقطار

ووصل الى القاهرة يوم ١٣ سبتمبر

وفى مساء يوم الجمعــة ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ كانت الجنود الانجليزية قد وصلت زمراً وأفواجاً وعسكرت فى سفح الجبل ومن يومئذٍ تقرر أن يكون من الجنود الانجليز فى مصر ١٢ ألفاً أما الجيش المصرى فقد قرر اللورد دوفرن أن يكون عدده ٦٠٠٠ رجل مؤلفاً من ثمانى أورط فيها ٢٥ ضابطاً انجليزياً

التحق كتشنر بفرقة الفرسان مع ضابط آخر بعد ان طلب ذلك من السير افلين وود الذى نظم الجيش والذى انتدب الليفتنانت كولونيل تيلور لتولى قيادة هذا الجيش ولما أراد السير افلين وود أن ينتخب ضابطين لمساعدته فى أعماله كان كتشنر أحد الضابطين لأنه يعرف اللغة العربية

رقى كتشنر حتى صار نائب القائد تيلور وقد كتب المستر جون مكدونالد مكاتب الديلى نيوز الحربى مقالاً فى مجلة القرن التاسع عشر جاء فيها « دعانى تيلور أن أرافقه وزميله لمشاهدة ما قاما به من الأعمال وكان الاثنان مرتدين بذلتين سوداوين وطر بوشين مصريين فرأيت الجنود المصرية على أتم ما يرام والجندى المصرى نشط وفى صباح يوم ٨ يناير سنة ١٨٨٣ قمنا نحن الثلاثة لملاقاة فرقة

الخيالة وقد بدأنا باستعراض الضباط وعلى مقربة منهم قال لى تيلور سنعلمهم أولاً ثم نسلمهم أمر الجند ثانياً . وقد أعددنا لهم ٤٤٠ حصاناً »

قام عندئذٍ المهدى فى السودان وسافر هكس باشا من القاهرة يوم ٧ فبراير عام ١٨٨٣ قاصداً بلاد السودان فوصل الخرطوم يوم ٤ مارس والخرطوم كما قال الكاتب ألبرت جونسون فى مجلة (بنى بكتوريال) البلد الصحى الوحيد على سطح الكرة الأرضية

نجح هكس باشا فى أول الأمر وفى يونيو أبرق الى السير افلين وود برقية جاء فيها « انى فى حاجة الى خمسة آلاف جندى آخرين وهذا العدد لا يمكن الحصول عليه من هنا الا باخراج الرجال قهراً من دورهم وغالباً يكونون من غير اللائقين ثم يقادون الى ميدان القتال مغلولين فهل لكم عوضاً عن ذلك أن ترسلوا لنا خمسة فرق من جيشكم الجديد وبهذا اكون ممنوناً »

فى يوم ٩ سبتمبر فارقت قوة هكس باشا المؤلفة من عشرة آلاف رجل خيامها فى أم درمان لغرض استرداد ما استولى عليه المهدى ودراويشه كأبيّض وبلدة أخرى بالقرب من كوردفان وفى سبيل ما أراد مات قتيلاً وزحف المهدى بجيوشه على الخرطوم وكان ما كان من سقوط السودان

وبينما كانت هذه الامور جارية فى السودان كان كتشنر ملحقاً بحملة جديدة جردتها جمعية البحث والتنقيب فى فلسطين للعمل فى شبه جزيرة سينا وكانت هذه الحملة تحت رئاسة الاستاذ ادوارد هَلْ أما مهمة كتشنر فهى الأعمال الفوتوغرافيــة وقد أدى كتشنر كالمعتاد خدمات جليلة فى هذه الرحلة دعت الاستاذ هَلْ أن يقرر فى مؤلفه « انى مدين لتجاربه وعلمه ومنتهى اجادته لأخلاق وعادات قبائل العرب وحسن تكلمه بلغتهم اذ كثيراً ما كان مترجماً بيننا وبين شيوخهم »

التحق كتشنر بهذه الحملة وهو فى القاهرة وسافر معهـــا من السويس يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٣ . والت الحملة عملها بنجاح تام دون أدنى عائق يكون حجرة عثرة فى سبيلها وفى أواخر شهر ديسمبر أوقفت الحملة لاجراءات صحية مدة عشرة أيام فى أثنائها تلقى الرئيس خطاباً من السير افلين بارنج (اللورد كرومر) بالقاهرة يتضمن الأمل العظيم بالنجاح ثم نعى الجنرال هكس ولما بلغ خبر قتل هكس مسامع كتشنر رأى العودة حالاً الى مصر فأسرع بالسفر براً من تل أبو حريرة القريبة من بئر سبع واجتاز صحراء سينا

جاء فى كتاب الاستاذ هَلْ « قوبل سفر كتشنر بحزن شديد

جداً فقد أظهر لنا فى مدة شهرين تقريباً من الدعة واللطف والرقة شيئاً كثيراً فضلاً عن انه أفاد الحملة بفضل معلوماته الغزيرة عن البدو »

سافر كتشنر من تل أبو حريرة قاصداً مصر فى آخر يوم من شهر ديسمبر وكان قد امتطى جواده ورافقه أربعة من الأعراب على ظهور جمالهم وكانت المسافة التى قطعها حتى الاسماعيلية ١٤٠ ميلاً ومما يذكر عن الأربعة الأعراب المرافقين لكتشنر ان ثلاثة منهم كانوا فى غاية الفظاعة والبلادة وأما الرابع فعلى العكس وعنه قال صاحب التاريخ « هو العربى النشط الأمين فى خدمته الذى لقيته بين قبائل الأعراب »

الفصل السابع

فى السودان

اجتمعت الوزارة الانجليزية وقررت ارسال الجنرال شارلس غوردون الى السودان وقد تلقى أمرها يوم ١٨ يناير وفى مساء ذلك اليوم تأهب للسفر فوصل الخرطوم فى شهر فبراير وقوبل بهتاف شديد من الحامية المصرية وكذا الأهالى وقد لاقى متاعب لا توصف حتى انه أرسل أخيراً تلغرافاً فى شهر ابريل يتضمن الاستقالة ولكنه استردها بعد رجاء وبعد استردادها وقعت مواقع انتهت بهزيمة باكر باشا أمام عثمان دقنة وقوته المؤلفة من ألف اعرابى وبوقوع حامية سنكات وطوكر فى الأسر ثم أعقبتها هزيمة الجنرال جراهام وفى شهر يوليو سنة ١٨٨٤ تقرر ارسال النجدة لغردون وقبلها عين كتشنر نائب مساعد ادجوتانت جنرال لادارة المخابرات الحربية تحت امرة السير شارلس ولسن

وصلت الفرقة من الجنود البريطانية الى حلفا فى ٢٣ اغسطس ولما بدأت الحملة زحفها فى أواخر شهر سبتمبر كان عدد الجنود

الانجليز فى مصر قد بلغ ١٣٥٥٩ رجلاً وفى يوم ٥ اكتوبر وصل لورد ولسلى الى وادى حلفا وبدأت بعد ذلك بشهر حملة دنقلة

ولما كان كتشنر ضابطاً للمخابرات أفادته معرفة لغة البلاد كثيراً فاحتك بجميع قبائل العرب بين البحر الأحمر والنيل واكتسب صداقة البشاريين والعبابدة وغيرهم

كتب المستر بينت برلى المكاتب الحربى لجريدة الديلى تلغراف « شاهدت فى الدبّة الواقعة جنوبى دنقلة بمسافة ٩٠ ميلاً بين العرب رجلاً أحمر الوجه زرقاء العينين فخيل لى انه انجليزى ولكن زاد دهشى لما علمت انه عربى ويتكلم العربية وقد اقتربت منه لأتحقق أمره فاذا به الكابتن كتشنر فرحب بى وزاد فى اكرامى بأن قدم لى زجاجتين من الخمر الفرنساوى الذى تعودنا شرابه على المائدة . مضى على كتشنر أربعة أسابيع دون أن يسمع كلمة انجليزية واحدة وكان مسروراً جداً لما أخذت أبلغه بعض ما حدث خارج السودان » ثم قال على سبيل ذلك واصفاً اياه « انه هادئ . يصغى أكثر من ان يتكلم وهو يصرح برأيه تماماً اذا ما وجد داعياً الى التصريح »

كان كتشنر فى دنقلة لما قررت وزارة غلادستون ارسال حملة

الى الخرطوم لانقاذ غوردون . قال غوردون « لا . ليس لانقاذى وانما لانقاذ الشرف الوطنى »

هناك طريقان لوصول الحملة . الأول من البحر الأحمر الى سواكن والثانى اتباع مجرى نهر النيل ولقد اختار اللورد ولسلى الذى قدم من انجلترا لقيادة الحملة الطريق الثانى وان كان طويلاً . وصل اللورد ولسلى الى وادى حلفا فى الأسبوع الأول من شهر اكتوبر ووادى حلفا كانت القاعدة الحربية للحملة

يشهد التاريخ وهو الشاهد العدل الذى لا ينكر حسنات المحسنين ولا ينسى سيئات المسيئين ان غوردون جاهد جهاد الأبطال وقد ركب الكولونيل ستيوارت الذى كان برفقة غوردون زورقاً بخارياً ومعه بلاغات فيها ايضاحات كانت تثمر ثمراً طيباً للانجليز فى السودان لو انها وصلت الى أولى الأمر ولكن القارب اصطدم بصخور فتحطم وغرق ستيوارت وعدد آخر من الانجليز ركبوه معه

تلقى غوردون خطاباً من كتشنر معنوناً باسم ستيوارت ومؤرخاً بتاريخ ٢١ سبتمبر وفيه يقول «هل أستطيع عمل شىء لك أو للجنرال غوردون . انى اكون مسروراً جداً لو تحيطنى علماً بذلك » وبعد أيام أخرى بعث كتشنر بخطاب الى غوردون وصف فيه كل شىء

عن الحملة الجديدة أما طريقة تبادل الخطابات فقد كتب عنها الماجور جنرال غوردون فى مذكراته يوم ٥ نوفمبر « أرسل الىَّ صديقى كتشنر خطابات لفًّا فى جرائد قديمة . لم يخبرنى بشىء فى الخطابات . ألقيت الجرائد فى الحديقة وهناك تناولها كاتب يلمُّ بالقليل من الانجليزية وناولها لصيدلى المستشفى الذى يعرف الانجليزية وقد رآه الطبيب يقرأ فيها أخباراً بتاريخ ١٥ سبتمبر فحملها الىَّ عاجلاً وكانت عندى هذه الصحف كالكنوز الذهبية كيف لا وقد وقفنا على شىء لم نلمّ بالقليل منه ولا الكثير منذ يوم ٢٤ فبراير »

فى شهر نوفمبر تلقى غوردون من كتشنر ما يفيد بأن الباخرة التى أقلت ستيوارت ومن معه وقعت فى قبضة العدو فاستولى على غوردون الحزن الشديد

وفى يوم ٢٦ من الشهر المذكور نشر غوردون فى مذكراته « وردنى خطاب يفيد بأن الحكومة أوحت الى كتشنر بأن يفدينى عند المهدى بمبلغ ٢٠ ألف جنيه » وبعد ذلك نعت غوردون صديقه كتشنر بالشهامة والشجاعة وقال « اكتفى نعتاً له بما ذكره بيكر عنه ويعجبنى ذلك وهو كتشنر « هو الذى وضعت آمالى فيه وانه من خيرة الضباط الانجليز . له فكر ثاقب ورأى صائب وهمة عالية »

رقى كتشنر الى رتبة ماجور فى شهر اكتوبر عام ١٨٨٤ ورافق الفرقة التى كان يقودها السير هربرت ستيوارت والتى قامت من كورتى فى ديسمبر

لم توفق حملة هربرت ستيوارت الى بلوغ غرضها لأنها التقت بقوة من الدراويش يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل ولم يكن عدد رجال حملة ستيوارت يزيد عن ١١٠٠ رجل فقتل فى تلك المعركة وهى معركة أبو طليح ١٠ فى المائة من القوة الانجليزية ومن القتلى الكولونيل فردبرناى وجرح السير هربرت ستيوارت فتولى القيادة بدلاً منه السير شارلس ولسن وبعد قتال عنيف طرد العدو واستأنفت الحملة تقدمها وبعد ان قاتلت فى معركة أخرى وهى معركة المتمة كانت قد سقطت الخرطوم وقتل غوردون وفى يوم ٥ فبراير وصلت الأنباء لندن فخيم عليها الحزن وكان شديداً

اعتزل كتشنر منصبه فى الجيش المصرى بعد فشل نجدة غوردون وعاد الى انجلترا وقد ذكر اسمه فى البلاغات والتقريرات مقروناً بالاعجاب ونال مدالية بالرباط والنجمة الخديوية وفى شهر يونيو من هذه السنة أى عام ١٨٨٥ رقى الى رتبة ليفتنانت كولونيل وانتدب عضواً فى لجنة اقامة حدود زنجبار وعاد منها الى مصر ثانية

وعيّن فى سنة ١٨٨٦ مديراً لاقليم البحر الأحمر خلفاً للجنرال وطسن فتمكن العرب بمشورته من التغلب على عثمان دقنة فى طماى ثم خلف الكولونيل شرمسيد فى وظيفــة حاكم عام لسواحل البحر الأحمر وقومندان سواكن

وفى اليوم السابع عشر من شهر يناير سنة ١٨٨٧ قاتل كتشنر عثمان دقنة بن أحد التجار العثمانيين فى هندوب ودحره فانصرف رجاله بعد التغلب على العدو الى النهب والاهتمام بالغنائم فغنم عثمان تلك الفرصة فهاجمه ثانية فدارت الدائرة عليه وجرح كتشنر وعاد الى سواكن جريحاً على ان جرحه لم يكن بليغاً فأراد أن يستمر فى مناوأة عدوه غير ان السير افلن بارنج (اللورد كرومر) لم يكن على رأيه ورأى ان خير خطة هى السكون واتخاذ خطة الدفاع لا خطة الهجوم

ولما كانت خطة كتشنر لا تتفق مع هذه الخطة نقل عام ١٨٨٨ الى وظيفة عسكرية محضة وهى وظيفــة ادجوتانت جنرال الجيش المصرى وعهد اليه فوق ذلك بوظيفة مفتش عام بوليس القاهرة

وفى مايو سنة ١٨٨٨ أصيب كتشنر بمرض فسافر الى انجلترا ولما وصلها عيّن ياوراً للملكة فكتوريا وفى ١١ يونيو أنعم عليه برتبة

الكولونيل وأنعم عليه كذلك بالنيشان المجيدى الثانى

وفى أواخر السنة نفسها عاد كتشنر الى مصر وعيّن لواء فى الجيش المصرى فى السودان وكان القتال لا يزال ناشباً فى شرق السودان وكان الخليفة قد أصبح صاحب الحول والطول فى السودان وذلك عام ١٨٩٠ وعثمان دقنة أكثر رجال الدراويش ازعاجاً للحكومة فقرر السير فرنسيس جرانفل سردار الجيش المصرى يومئذٍ سحقه بدون ابطاء فعهد بذلك الى الكولونيل كتشنر وكان كتشنر عندئذٍ قائداً للواء السودانى الأول فهاجم برجاله عثمان دقنة فى الجميزة وفى اغسطس كان الكولونيل كتشنر يقود الجنود الراكبة فى موقعة طوشكى فقتل واد النجومي فى هذه المعركة وذكر كتشنر فى رسائل القائد العام وأنعم عليه بنيشان الحمام

وفى عام ١٨٩٢ ترك السير فرنسيس منصب سردار الجيش المصرى وكان يظن ان الكولونيل وودهوس يخلفه فى ذلك المنصب ولكن كتشنر عين فيه فدهش الجميع لتعيينه الذى يعود الى الحاح اللورد كرومر وقال المستر تشرشل فى ذلك « ان اللورد كرومر قد وجد الضابط الحربى الذى يعتقد فيه الكفاءة لفتح السودان اذا ما سنحت الفرصة لذلك » ولم يمضِ وقت طويل حتى أثبت كتشنر

جدارته بالمنصب وبرهن على أنه ليس ضابطاً حربياً محنكاً فقط بل هو فوق ذلك ادارى حازم وقد أنعم عليه بوسام القديسين ميخائيل وجورج من الدرجة الثانية فلقب بالسير هربرت كتشنر

تلا ذلك تجريد الحملة المصرية الانجليزية لاسترداد السودان وورد اليه تلغراف عند منتصف ليلة ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ يؤمر فيه باحتلال عكاشه وكان كتشنر قد مد سكة حديد الصحراء وهى تعد من أعظم أعماله وفى ٦ يونيو أصدر أوامره بمهاجمة الدراويش عند طلوع الفجر فى فيركت « Ferket » وكانت قوته مؤلفة من ٩٠٠٠ رجل ولكن يصحبها من الضباط هنتر ولويس ومكدونالد ومكسويل وبرن مردوخ وسلاطين والماجور ونجت

فازت الحملة فوزاً عظيماً وضرب كتشنر محمود فى العطبرة ثم الخليفة فى أم درمان وقد رقى هو وهنتر الى رتبة ماجور جنرال

زار كتشنر انجلترا زيارة قصيرة تمكن فيها من اطلاع أولى الأمر على أشياء كثيرة فى السودان وكان مما فاه به لأحد محدثيه « انه من الخطأ البيّن الظن بأن قوة الخليفة قد انحطت » ولهذا عاد فى ديسمبر الى مصر ومعه أمر بالاستمرار فى تجريد الحملة

أخذ يفكر فى الطريق السهل لتحقيق رغائبه السودانية وأخيراً

قرّ قراره على تشييد خط دفاع من وادى حلفا الى أبو حمد مخترقاً فى الجنوب الشرقى صحراء نوبيا وبهذا يمكن دفع الجنود بسهولة الى بربر

رأى كتشنر ضرورة الخطوط الحديدية لسرعة الانجاز فى العمل ولما رتب كل شىء بدأ العمل فى مدها فى اليوم الأول من السنة الجديدة — ١٨٩٧ — والذى تولى هذا العمل هو الليفتنانت جير وارد الكندى فقد أقام فى عشة بوادى حلفا وشرع يفكر ويعمل

تمت الخطوط الحديدية فسار القطار الأول من وادى حلفا محملاً ذخيرة وأعقبه آخر بالغذاء والماء وحتى يوم ٢٠ يوليو كان قد تمّ مد ١٣٠ ميلاً حديدياً وكانت المواصلات بين القاهرة وأبو حمد على أتمّ ما يرام فى أول نوفمبر

فى يوم ٤ ابريل سنة ١٨٩٧ كان جيش كتشنر فى الاباضار أى على مقربة من العدو بخمسة أميال وفى ٧ منه كان الجيش متقدماً الى أم داية على العطبرة وهناك أخذ يقاتل محمود اذ عند منتصف الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم صبت مدافعه نارها الحامية على عدوه القريب اليه من حبل الوريد فجاوبتها المدافع وصار جيش كتشنر يتقدم الى الأمام حتى فاز بالنصر والفتح المبين

وكانت خسائره ١٨ ضابطاً انجليزياً ما بين قتيل وجريح ومن الجند خمسمائة أما خسائر العدو فثلاثة ألف رجل من الدراويش و ٤٠ أميراً وقد لاذ عثمان دقنة بالفرار أما الأمير محمود فكان أسيراً

عاد كتشنر الى بربر وجمع الجند وزين ميدان الاجتماع بالاعلام ووقف نحوطه أركان حربه والضباط وجيء بالأمير محمود مغلول اليدين وأجبر على أن يمر أمام الجند ووراءه راية كتب عليها باللغة العربية « هذا هو محمود الذى قال انه سيستولى على بربر »

أخذ كتشنر يعد المعدات للقيام بالحملة الأخيرة فيهزم مولى الأمير محمود الذى وقف على كل شيء عنه من الفارين وخصوصاً عثمان دقنة والذى لا يزال حاشداً خمسين ألف مقاتل فى أم درمان ولقد قال المستر بينت برلى فى كتابه (السردار والخليفة) « السردار السير هربرت كتشنر لم ينسَ شيئاً فى سبيل أعداد حملته الأخيرة » ويجدر بنا هنا أن نذكر حكاية يقال انها جرت حقيقة والسردار يعد المعدات وملخص هذه الحكاية هو أن كتشنر طلب من أولى الأمر فى انجلترا ارسال نوع من المدافع فاقترحوا عليه نوعاً آخر وأبلغته وزارة الحربية ان طراز المدافع الذى وقع عليه اختيار أولى الأمر سيرسل اليه قريباً فكتب اليهم كتشنر

قائلاً « أشكركم وأرجوكم ابقاء المدافع عندكم فانى سأحارب الدراويش بالقاء الحجارة عليهم » وبمجرد وصول هذا الخطاب أرسلت له وزارة الحربية ما اختار من المدافع

لما أتم كتشنر المعدات من ذخيرة ومواد تكفى مدة ثلاثة أشهر ولما وصلت المدافع سافر واركان حربه الى أبى حمد وبدأ الزحف على أم درمان وجيش الخليفة الموجود فيها وكانت هذه الحملة مؤلفة من ٨٢٠٠ جندى انجليزى و ١٧٦٠٠ جندى وطنى ومعهم ٨٠ مدفعاً و ٤٤ مكسيماً ومن الحيوانات خيول وبغال وجمال الخ يقدر عددها بتسعة آلاف

تقع أم درمان على الضفة الغربية من النيل وتقابلها الخرطوم على الشرقية . كان الخليفة فى أم درمان ولهذا سارت الحملة متجهة نحو الغرب فى حين أن بعضاً آخرين من الحملة تحت رئاسة الماجور ستيوارت ورتلى اتجهوا ناحية الشرق

أحاطت القوة الانجليزية بأم درمان ومن فيها احاطة السوار بالمعصم وضيقت عليهم الخناق حتى ألحقت بهم من الخسائر ٩ آلاف درويش قتيل وألف جريح أما خسارتها فأربعمائة قتيل وجريح

دارت رحى القتال فى أم درمان يوم الجمعة ٢ سبتمبر وقد طير

أنباء النصر فيها الى انجلترا الماجور ونجت ورفعت الاعلام — اعلام النصر — فوق أم درمان والخرطوم وبعد معركة أم درمان وقعت بين كتشنر ومارشان حادثة فاشودة الشهيرة التى أبدى فيها السردار حزماً عظيماً وانتهت أخيراً بالاتفاق الذى عقد بين لورد سالسبورى والمسيو كامبون بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٨٩٩

وفى يوم ٢٤ نوفمبر كانت معركة الجديد التى قتل فيها الخليفة ورجاله المقربون وقضى على شركة الدراويش فى السودان وأنعمت عليه جلالة الملك بلقب لورد من طبقة بارون ولقب لورد كتشنر أف خرطوم وأعطى مكافأة مالية تقدر بثلاثين ألف جنيه

وفى أواخر اكتوبر سنة ١٨٩٨ سافر كتشنر الى انجلترا ودعا الشعب البريطانى الى الاكتتاب بالمال لإنشاء كلية غوردون فى الخرطوم وقدّر المال المطلوب بمائة ألف جنيه فلبى الشعب دعوته وتبرع له باكثر من ذلك

وفى يوم ٥ يناير وضع اللورد كرومر حجر الأساس لتلك الكلية بحضور مشايخ السودان وأعيانه

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٩ أضيف الى لقب سردار الجيش المصرى الذى كان يلقب به اللورد كتشنر لقب الحاكم العام للسودان فانتم

سكة الحديد الى الخرطوم وخطط تلك المدينة وفى يوم ١٠ يناير سنة ١٩٠٠ سافر القطار الأول من حلفا الى عاصمة السودان

الفصل الثامن

فى جنوب افريقيا

ان الحرب التى نشبت بين بريطانيا العظمى وبين البوير كانت شديدة قاسية وفيها تمكن العدو من مضايقة ثلاث حاميات انجليزية مضايقة يذكرها التاريخ كما ذكرت بلدة لاديسمث وكمبرلى وبلدة أخرى على مقربة من مافكنج ولقد قيل ان انجلترا لم تظهر لها دلالة واضحة على عظمتها كالتى بدت فى شهر ديسمبر الأسود كما وصفه المستر جروسر فى سنة ١٨٩٩

بعثت انجلترا الى ميدان هذه الحرب بزهرة نضرة من أبنائها وعملت فوق ما يظن أحد أن تعمل وما ذلك كله الآ عن طيب خاطر ورضاء تام من الشعب الانجليزى الذى يعرف الواجب الوطنى ويؤديه قبل كل شيء

كان فى ميدان الحرب مائة ألف رجل انجليزى ثم أرسل من بعد مائة ألف أخرى والغالبية متطوعون والجود بالنفس أقصى غاية الجود والذى تولى قيادة هذه القوة الهائلة بطل الحرب الهندية والافغانية اللورد روبرتس أف كاندهار وقد عين اللورد كتشنر أف خرطوم رئيساً لأركان حربه وان انضمام هذين البطلين هز العالم وبشر انجلترا بعز دائم ونعيم مقيم وكفى أن يكون دعامة هذا النصر روبرتس القائد الأول فى الجيش البريطانى وكتشنر الذى نظر اليه الناس عامة والأنجليز خاصة بعين الاجلال والاكبار وأيقنوا أنه قائد المستقبل

أشار لورد روبرتس الى اللورد كتشنر فى خطابه فى سوثمبتون بعد عودته من الترنسفال بقوله « لقد كان اللورد كتشنر بصفته اركان حربى يدى اليمنى فى أثناء الحرب وانه ليسرنى أن أغتنم هذه الفرصة للتعبير عما أنا مدين له من المشورة والمساعدة ولا أظن أحداً كان يستطيع أن يعمل بالنشاط وعدم الكلل الذى عمل به لورد كتشنر ولا أظن أحداً كان بامكانه ان يساعدنى بالاخلاص الذى ساعدنى به »

ويروى عن لورد كتشنر أن اللورد روبرتس دعا ذات يوم

ضابطاً برتبة كولونيل وعهد اليه قضاء عمل من الأعمال وسأله قائلاً « متى نستطيع أن تقوم بهذا العمل » فأجاب الضابط « سأحاول اتمامه فى اسبوعين » فصرفه لورد روبرتس باسماً وقال « أنا أعلم انك ستبذل جهدك »

وبينما كان ذلك الكولونيل خارجاً من عند اللورد روبرتس التقى باللورد كتشنر فسأله كتشنر ما الخبر فأخبره الكولونيل بما كان بينه وبين القائد العام فحدق به كتشنر وقال « اسمع يا كولونيل ان لم يتم هذا العمل قبل اسبوع واحد نضطر أن ننظر فى أمر ارجاعك الى انجلترا » وهكذا تم العمل فى اسبوع واحد

فى يوم ٦ فبراير سنة ١٩٠٠ بدأ اللورد روبرتس واللورد كتشنر بالزحف ناحية بلومفنتين وبريتوريا وكان اللورد كتشنر هو الذى أعد القوة التى اقتفت أثر كرونجى « Cronje » ودارت بينها وبينه عند باردبرج الموقعة التى سميت (موقعة كتشنر)

وفى يوم ٢٧ فبراير سلم كرونجى نفسه وبعد ذلك زحف اللورد كتشنر بقوة من الفرسان الى الشمال الغربى من ولاية الكاب فطهرها من العصاة الثائرين

كان اللورد كتشنر ذات مرة نائماً فى عربة من عربات السكة

الحديدية باحدى المحطات وقد علم بذلك القائد البويرى دى وت فأرسل قوة فى صبيحة يوم ١٤ يونيو لالقاء القبض عليه وكاد يقع فى الشرك لولا ان الظروف ساعدته من حسن الحظ فلاذ بالفرار على ظهر جواد مطهم

وفى شهر نوفمبر علم ان اللورد روبرتس سيعود قريباً الى انجلترا لتولى وظيفته الجديدة وهى القائد العام للجيوش البريطانية وفى الأيام الأخيرة من هذا الشهر برح الترنسفال بعد ان سلم القيادة فى جنوب افريقيا الى رئيس أركان حربه اللورد كتشنر

بعد سفر اللورد روبرتس بأشهر قلائل اشتعلت نار الفتنة ثانية فى البوير واشتد لهيبها وهاجم دى وت ولاية الكاب على أمل ان يحرك أهل الكاب بهجومه فيمدون له يد المساعدة ولكن خاب فيما أمل وفى شهر فبراير ارتد الثائرون الى الوراء بخسائر فادحة وتشتت شملهم فى ولاية نهر الاورانج

طلب اللورد كتشنر من حكومته ارسال قوة جديدة وفى أوائل فبراير بعد اعتلاء الملك ادوارد السابع عرش الامبراطورية الانجليزية أعلنت وزارة الحربيـة أمر رسالة ٣٠ ألف جندى مسلحين بعدد جديدة وما طلب هذه القوة الا ليقضى القضاء المبرم على من أشعلوا

نار حرب ضروس دامت نحو ثلاث أو أربع سنوات كاملة وكانت أقسى من الحرب الفرنسوية الألمانية ومن الحرب الأهلية فى أمريكا

فى ٢٨ فبراير تقابل القائد بوتا مع اللورد كتشنر فى مدلبرج للنظر فى شروط الصلح وافترقا على غير جدوى واشتد أوار الحرب حتى ان اللورد كتشنر فى شهر ديسمبر طلب ارسال تسعة آلاف رجل آخرين فلبيت دعوته بواحد وستين ألفاً هذا عدا القوة التى جمعت من جنوب افريقا وتقدر بعشرة آلاف وبهذا تكون القوة الانجليزية بالغة ٢٠٠ ألف جندى و ٤٥٠ مدفعاً

فى شهر فبراير عام ١٩٠٢ أخذت بشائر النصر تلوح للجيش الانجليزى وأراد اللورد كتشنر حصار دى وت الا انه تمكن من النجاة وفى يوم ٧ مارس مزق طابور اللورد مثوين وعدده ١٢٠٠ جندى فى الترنسفال الغربية وجرح اللورد وأسر وفى ٢٣ مارس رفع عصاة البوير راية السلام وجاءوا الى بريتوريا للتشاور مع زعماء ولاية الاورانج الحرة وفى ٩ ابريل عقدت لجنة للمرة الثانية للبحث فى شروط الصلح فى كلركسدورب وكانت اللجنة مكوّنة من المستر ستاين والجنرال ديلارى ودى وت وفى ١٦ مايو عقدوا اجتماعاً آخر فى فرسنجنج وفى ١٨ مايو سافرت هذه اللجنة الى بريتوريا للتشاور

مع اللورد ملنر واللورد كتشنر وفى ٢٩ مايو ورد رد الحكومة الانجليزية وبهذا الرد أمضيت شروط الصلح فى بريتوريا عند منتصف ليلة ٣١ مايو

وفى يوم ٤ يونيو أبلغ وزير الحربية اللورد كتشنر الرسالة الآتية :

« ان حكومة جلالة الملك تقدم لك عظيم التهانى لأجل نشاطكم وذكائكم وصبركم الذى به عجّلتم بالقضاء على هذه الحرب وترجوكم ان تبلغوا الجنود الذين تحت قيادتكم تهانيهـا أيضاً جزاء ما أبدوه من الشجاعة »

نال اللورد كتشنر اعجاب البرلمان الانجليزى وفاز بهبة قدرها ٥٠ ألف جنيه وقد قال عنه المستر اسكويث « انه الجنرال الصبور العظيم »

وقبل ان يبرح الترنسفال أولمت له وليمة فاخرة وقف فيها بين المدعوين خطيباً قائلاً وكان المدعوون ممن خدموا معه فى هذه الحرب « ماذا تعلمتم فى هذه الحرب ؟ ان البعض قد تعلم الركوب والصيد وكلكم تعلمتم ضرورة السرعة فى الاستعداد التام واداء الخدمة بصدق عند ساعة الخطر وتعلمتم كيف يكون الدفاع وانه واجب الاحتفاظ بما فزتم به . انكم لا تستطيعون نسيان اخوانكم الذين

حاربوا بجانبكم فى عدة وقائع . علموا الناشئة التى نخاهكم كل ذلك . استعدوا دائماً »

عاد اللورد كتشنر الى انجلترا فقوبل مقابلة لم تسبق لأحد من القواد فى تلك الأيام ورقى الى رتبة فيكونت

الفصل التاسع

فى الهند

فى سنة ١٩٠٦ عين اللورد كتشنر قائداً عاماً للجيش فى الهند وفى طريقه اليها زار مدينة الخرطوم وبعد مضى سنة من وصوله الى الهند حدثت له حوادث مؤلمة لا محل لذكرها هنا ولكننا نستطيع ذكر واحدة منها وهى انه ركب ذات مرّة حصاناً من احدى البيوت الخلوية على بُعد ستة أميال من سملا قاصداً العودة الى منزله وكان فى الطريق نفق لما ولجه وكان ظلامه حالكاً ارتعدت فرائص الحصان فصهل شديداً وجرى مسرعاً على غير هدى فاصطدم اللورد صدمة عنيفة نتج منها أن عظمتى ساقه كسرتا .

أصلح اللورد كتشنر نظام الجيش فى الهند ووقع بينه وبين

اللورد كرزون حاكم الهند وقتئذٍ خلاف أدى الى استقالة الحاكم يوم ١٩ أغسطس سنة ١٩٠٥ بعد أن أعلنت الحكومة البريطانية فى شهر يونيو من السنة المذكورة موافقتها على رأى كتشنر فقبلت الاستقالة وعيّن اللورد منتو حاكماً للهند خلفاً له

نظم كتشنر الجيش الهندى وأوجد فيه جنداً من مختلف القبائل كالجرخاس . درّب الجند تدريباً حسناً وقد ورد فى مجلة الاسبكتيتور « ان فرق الجيش كانت تمتحن فى كل فرع من التعاليم الحربية أمام لجنة تؤلف لهذا الغرض من الضباط » . سلحت المدفعية بمدافع ضخمة سريعة الطلقات . انشئ فى كويتا « Kuetta » مركز رئيسى للأركان الحربية كما انشئ غيره فى كامبرلى وزيد على عدد الجيش ٣٥٠ ضابطاً فى مختلف الدرجات

وفى شهر سبتمبر عام ١٩٠٩ عاد اللورد كتشنر الى انجلترا وطلبت منه الحكومة الانجليزية زيارة استراليا ونيوزيلاندا لتفقد معداتهما الحربية وكتابة تقرير واف عنهما فبرح انجلترا متجهاً ناحية الشرق ومرّ بالصين واليابان وفى الأخيرة قوبل بما يفوق حد الوصف

ذهب الى استراليا وبعد تفقدها قرّر أنها لا تليق أن تذكر الاّ اذا أعدّت معداتها بنفسها ثم ضاعفت القوّة البرية والبحرية

من جهة الحصون والأسطول والرجال على الخصوص ثم أخذ يضع مشروعاً يؤهل استراليا فى ظرف سبع سنوات أن يكون لها جيش مؤلف من ٨٠ ألف جندى بقيادة ضباط كاخوانهم فى الغرب

وكان مما فكر فيه أن تتعلم الذكور الفنون الحربية من يوم بلوغهم ١٢ سنة ثم يلتحقون بالجيش وهم بين سن الثامنة عشرة والثلاثين من عمرهم

قصد اللورد كتشنر نيوزيلاندا وهناك وضع لها مشروعاً لتكوين جيش أهلى وفى شهر ابريل سنة ١٩١٠ عاد الى انجلترا منعماً عليه برتبة فيلد مارشال

الفصل العاشر

فى مصر ثانية

عاد كتشنر الى وطنه بعد غيابه مدة ثمان سنوات ولدى وصوله أشيع أنه سيعين قائداً عاماً لقوات البحر الأبيض المتوسط التى مركزها الرئيسى فى مالطة خلفاً للدوق أف كنوت ولكنه أعلن فى شهر يونيو عدم صحة هذه الاشاعة وفى شهر اكتوبر عين عضواً

فى لجنة الدفاع العام ولم تمضِ سنة واحدة على تعيينه هذا حتى مات السير الدون غورست خلف اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فعرض أولو الأمر هذه الوظيفة السامية على اللورد كتشنر فقبلها

قدم الى مصر وأخذ يعمل الشىء الكثير مما دعا الأستاذ جون تود فى جامعة نوتنجهام الى الكتابة بعد ايابه الى بلده من مصر « انه غيَّر معالم كل شىء فى مصر » وجاء فى جريدة النيسيون فى شهر ابريل من سنة تعيينه « حدثنى سائح قدم من مصر قريباً بأن حالة مصر تغيرت . خفت صوت جماعة الوطنيين وأخذت الحالة الاقتصادية تتحسن أما الزراعية ففى تقدم مستمر »

أعمال اللورد كتشنر فى مصر كثيرة لا محل لذكرها بالتفصيل هنا اذ تقاريره تكفينا مؤونة ذلك ولكنا لا نمتنع عن ذكرها مجملاً فنقول انه بدل مجلس الشورى بالجمعية التشريعية وعمَّر الأرض البور فى شاملة ووزعها على الفلاحين وسن قانون الخمسة أفدنة وقانون النقابات الزراعية وحوّل ديوان الأوقاف الى وزارة وحوّل برنامج التعليم فى المدارس الى تعليم عملى وأصلح فى القاهرة وكثير من المدن الميادين والطرقات والساحات ومهد الطرقات بين المدن الكبرى وكان يعرف أكثر أعيان المصريين وشيوخهم وعمدهم

فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ اطلق تلميذ اسمه برنزيب النار على الأرشيدوق فرنسيس فرديند ولى عهد النمسا وعلى قرينته فى أحد شوارع سراجيفو فقتلهما فأرغدت النمسا وأزبدت وأرسلت الى صربيا تطالبها بمطالب كانت فوق المستطاع وأمهلتها يومين للجواب وما كان من النمسا الآ أن أشهرت الحرب عليها ثم تلا ذلك أن شهرت الحرب بين النمسا والمانيا من جهة وبين الروسيا من جهة أخرى وهاجمت المانيا فرنسا قبل أن تعلنها بالحرب واخترقت حياد مقاطعة لكسمبرج ثم بلجيكا ولما كانت انجلترا مضطرة لحماية استقلال البلجيك لم يسعها الآ أن تشهر الحرب على المانيا وكان ذلك فى يوم ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ وفى يوم ٥ منه عين اللورد كتشنر فى المنصب الخطير — منصب وزير الحربية — وقد قابلت الأمة الانجليزية هذا التعيين بابتهاج وفرح ما عليه من مزيد

بدأ عمله بأنه طلب من شبان الأمة التطوع فلبوا دعوته وكان قد أعلن ذلك فى مجلس البرلمان يوم ٦ أغسطس اذ قال « أنا فى حاجة الى ٥٠٠ ألف جندى والآن يجب أن يكون ١٠٠ ألف على أتم استعداد » ولم تمض ثلاثة أسابيع حتى كان « جيش كتشنر » تام العدد والعُدد

لا نريد أن نتحدى لبقية أعمال كتشنر فى هـذه الحرب اذ لا زالت الحرب ناشبة ونشوبها هذا يحول بيننا وبين ايفاء الفقيد حقه وبمجرد وضع الحرب أوزارها نبيّن بجلاء ووضوح ما كان من أعماله فى السر والعلانية

شاءت الأقدار أن يختم حياته بالعمل المجيد فى ميدان الدفاع الوطنى — ميدان الشرف — وقد افتتح تاريخه بأعمال جليلة واختتمه بأجل ما تختم به حياة طائفة بكل عمل يذكر فيشكر

الفصل الحادى عشر

متفرقات عن اللورد

١

ذهب اللورد قبيل غرقه بأيام قلائل الى شركة انجليزية مشهورة فى لندن ليبتاع شيئاً فوجد الثمن فوق ما كان يظن

لاحظ ذلك رئيس الشركة الذى يعرف اللورد حق المعرفة فقال له

« يا جناب اللورد . ان الثمن مرتفع لمناسبة سوء الحالة الحاضرة»

أجاب اللورد

« معلهش يا سيد . الحالة ستكون حسنة فى ظرف ثلاثة أشهر »

٢

لم يمل اللورد قط للنساء، وقد حدث انه تقابل مع سيدة انجليزية على ظهر باخرة وحصل بينهما التعارف وعرّفها اللورد بصديق له

اجتمع اللورد بصديقه وقال له « لو أردت الزواج فيجب أن أتزوج سيدة مثل هذه »

سأله الصديق « لماذا ؟ »

أجاب اللورد « انها سيدة حساسة عاقلة »

٣

ذهب اللورد يوماً لزيارة صديق له فى منزله وفيما هما يتجولان فى أنحاء حديقة المنزل وقف اللورد أمام شجرة صغيرة وقال « ان منظرها بهيج ورائحتها عطرية »

قال الصديق « سأبعث بها اليك فى بروم »

« قال اللورد « أما وقد أهديتنيها فلتصحبنى فى مركبتى » وفعلاً أخذها اللورد عند خروجه من المنزل

٤

لما كان اللورد فى بلاد الهند بعث اليه جماعة من أصدقائه خطاباً يتضمن ان ما يتناولونه من الخبز فى جنوب افريقيا انما هو من قمح غير جيد ويرجونه ان يرسل اليهم حبوب قمح جيد فأرسله

ذهب اللورد بعد ذلك بسنين عدة الى بعض البلاد الشمالية الشرقية فى افريقيا فعلم من المزارعين ان قمحهم يسمى (قمح كتشنر) ولما سأل عن السبب أجيب بأن حبوبه من جنوب افريقيا فتذكر ما كان قد غاب عنه وقال «لقد أطلق اسم جدى على شعير واسمى اليوم يطلق على قمح»

٥

دار حديث بين مندوب جريدة الديلى كرونيكل و بين صديق للورد فقال الأخير :

« ان اللورد شفوق جداً وأؤكد انه أشفق من عرفت طول حياتى . محب للحق . وديع . لم يكن ميالاً للهو . لم يفكر فى امرأة . كان يسلى نفسه كثيراً بتلك الأقاصيص والتنبؤات التى يتحدث بها القوم عنه بمجرد ذكر اسمه »

٦

كان بين الذين أبنوا اللورد كتشنر فى مجلس الأعيان اللورد فرنش وقد قال فى ختام تأبينه « لما نشبت الحرب واتجهت الأنظار الى تعييني قائداً للقوات البريطانية فى فرنسا قصدت اللورد كتشنر وألححت عليه فى مقابلة المستر اسكويث لكى يقلده (أى كتشنر) منصب قيادة الجيش فى فرنسا وعلى ان اكون رئيساً لأركان حربه ولكنى لم أفز فى اقناعه ولم يكن يخطر ببال كتشنر حينئذٍ اسناد وزارة الحربية اليه »

٧

لما عرض المستر اسكويث رئيس الوزارة الانجليزية على مجلس العموم اقامة أثر للورد كتشنر قال « ان اسم اللورد كتشنر لا ينفصل عن اسم اللورد كرومر فهما قاما بأكبر عمل تم فى هذا العصر بتحرير القطر المصرى وانهاضه وفتح السودان وتعميره »

٨

كتب اللورد كرومر مقالاً عن اللورد كتشنر جاء فيها « حدث فى صيف ١٨٩٧ انني كنت فى لندن عند ما سار اللورد كتشنر فى النيل على أمل مقابلة الكابتن مارشال الفرنسوى ولأسباب وقفت

التعليمات التى كانت مرسلة له وكنت أقول انه يستحيل على من كان فى لندن أن يبدى حكماً فى حالة اللورد كتشنر فى فاشودة وكنت ألح فى تقدير نتائج هذه المقابلة وكنت أرى ان الواجب يقضى بعدم ارسال تعليمات مفصلة مهما كانت قيمتها وان نثق كل الثقة بحذقه ومهارته وكان اللورد سالسبورى وزيراً للخارجية فوافق رأيى واتبعه

وقد أصبح من الأمور الثابتة فى التاريخ ان اللورد كتشنر برر هذه الثقة اذ سار فى حل المسألة بطريقة حكيمة جعلتنا نذكر اننا مدينون لحكمته »

٩

لما عين اللورد كتشنر فى بلاد البوير قائداً عاماً بدل اللورد روبرتس الذى عاد الى انجلترا أعلن اللورد كتشنر الأحكام العرفية وكان مما يقضيه عدم الخروج من الدور بعد الساعة الثامنة مساء فلم يرق ذلك لسيدة كانت تقيم حيث يقيم اللورد وأركان حربه فذهبت اليه وأبلغته انها تعودت النزهة قليلاً بعد تناول العشاء فى هذه الساعة وصارت تتردد على اللورد وأركان حربه محتجة بشدة وأخيراً نشر اللورد كتشنر النشرة التالية :

« أجيز للسيدة . . . . ان تمشى فى الشوارع طول الليل » هذا

أما ما كان من أمر السيدة فانها سافرت من البلدة فى اليوم الثانى

١٠

خرج اللورد كتشنر فى يوم السبت آخر أيامه فى هذه الحياة من مكتبه بعد ان قضى أسبوعاً كاملاً فى وزارة الحربية وقال لسائق سيارته « الى بروم بارك » وهو بستان يتخلف اليه اللورد طلباً للراحة كلما سنحت له الفرص

قضى فيه قليلاً من الزمن ثم عاد الى الوزارة وأعد معدات السفر وأسرع الى المحطة فركب القطار الى الشمال ولما ركب البحر قضى ساعتين والأمواج تلاطم السفينة بشدة فى البحر الشمالى ولا بد انه لم ترهبه شدة التلاطم اذ كان قد صرح لأحد وكلاء شركة هافاس قبل غرقه بثلاثة أشهر قائلاً « ان موتى لا يكون الاّ وأنا على ظهر باخرة »

١١

لم يترك اللورد ورثة له الاّ أخوه الاكبر هنرى اليوت شفالير كتشنر والوريث الثانى هو ابن الأخ هنرى فرانكان شفالير كتشنر الذى ولد عام ١٨٧٨

ان وصية اللورد كتشنر عبارة عن ٤٣٢٩ كلمة مؤرخة بتاريخ ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ وموصى بفتحها بعد وفاته بشهر من الزمان والذى حررها المستر ارثر هنرى رنشوات والنجتن بارك باكسفورد والجرنون هنرى ملز القاطن بمنزل نمرة ٦٧ بشارع لومبارد

أوصى بالقسم الاكبر من أملاكه لابن أخيه وأوصى بكل أملاكه فى افريقيا الشرقية للكولونيل فيتز جرالد الذى مات غريقاً فى حادثة همشير وأوصى لستة من أركان حربه الخاص بمئتى جنيه لكل منهم وفيهم الجنرال بردوود وتقدر ثروته بمبلغ ١٧١٤٢٠ جنيهاً

« انتهى »





Bu eserin;

kataloglanması, dijital ortama aktarılması ve

elektronik ortamda kullanıma sunulması

İstanbul Kalkınma Ajansı (İSTKA)'nın desteğiyle

İBB Kültür ve Sosyal İşler Daire Başkanlığı

Kütüphane ve Müzeler Müdürlüğü (Atatürk Kitaplığı)

tarafından gerçekleştirilmiştir.

Proje No	:	İSTKA/2012/BIL/233
Destek Programı	:	Bilgi Odaklı Ekonomik Kalkınma Mali Destek Programı
Projeyi Destekleyen	:	İstanbul Kalkınma Ajansı (İSTKA)
Proje Adı	:	Osmanlı Dönemi Nadir Eserlerin Kataloglanması, Dijital Ortama Aktarılması ve Elektronik Ortamda Kullanıma Sunulması
Proje Sahibi Kuruluş	:	İBB Kültür ve Sosyal İşler Daire Başkanlığı
Proje Yüklenicisi	:	Yordam BT Ltd. Şti.
Proje Uygulama Yeri	:	Kütüphane ve Müzeler Müdürlüğü - Atatürk Kitaplığı İSTANBUL – Beyoğlu

